التعليم في الإسلام

أ.د. حسين أمين
رئيس قسم الدراسات الإنسانية/ جامعة بغداد
الأمين العام السابق لاتحاد المؤرخين العرب

لاشك أن التعليم من أبرز مقومات الحضارة العربية الإسلامية، وأن الدعوة المحمدية استهدفت أصلا تحقيق مبدأ تعميم التعليم والحث على طلب العلم، ذلك أن التعليم أساسا هو من مستلزمات تطور وازدهار المجتمع الإنساني، ولما كان الإسلام هو النظام الموجه للحياة عند المسلمين بكل مظاهره فقد كان فهمه ودراسته أمر لا بد منه لأفراد الجماعة الإسلامية، فالتعليم إذن كان من مستلزمات الدعوة الجديدة لتحقيق التربية الصحيحة التي تهدف إليها الدعوة الإسلامية، ومن المؤكد أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان يستهدف بناء أمة جديدة وإنشاء حكومة تضاهي الحكومات القائمة في عصره فكان لابد من إعداد طبقة متعلمة ومدركة بفهم مسؤولية تحمل أعباء الدعوة الإسلامية وتكون لها القدرة على إفهام الناس وإقناعهم بالطرق العلمية، ويذكر القلقشندى، أن عدد الكاتبين بين العرب عند بعث النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يزيد على بضعة عشر نفرا، لذا كان من أهداف الرسول صلى الله عليه وسلم العمل على نشر التعليم بين المسلمين وتشجيعهم على ارتياده، هذا ومن الجدير بالذكر أنه منذ انبثاق الدعوة الإسلامية كان التعليم قرينا لها وكانت أولى الآيات القرآنية الكريمة تشير إلى العلم وبعض أدواته قال تعالى: [اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم] كما وردت آيات قرآنية كريمة تدعو المسلمين إلى طلب العلم والاستزادة منه، قال تعالى: [يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات]. وقال تعالى: [وقل ربي زدني علما].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو القوم إلى طلب العلم ويشجع الناس على التعلم روى عن مكحول، أنه قال: حدثني عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: كنا ندرس في مسجد *قبا* إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: تعلموا ما شئتم أن تعلموا فليس يأجركم الله حتى تعلموا[1].

وفي حديث آخر للرسول صلى الله عليه وسلم أنه مر بمجلسين في مسجده فقال: كلاهما خير وأحدهما أفضل من صاحبه أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء

---

[1] الغزالي/ قائمة العلوم، ص:19.

منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلمون الجاهل فهم افضل، وإنما بعثت معلما، قال ثم جلس فيهم[1].

الرواد الأوائل في تعليم الناس القرآن الكريم ومعانيه السامية، وتكوين طبقة ذات مكانة سامية في المجتمع الإسلامي، هي طبقة الحفاظ، والحافظ يعتبر أسمى درجة من العالم بالحديث أو المشتغل باللغة[2]، وكانت هذه الطبقة قدمت أجل خدمة للدين وأنبل عمل للإسلام وأصدق وحي للإنسانية، تدوينها للقرآن الكريم بكل أمانة ونزاهة وحقيقة وإخلاص.

وقام الصحابة الكرام بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليم المسلمين وتفقيههم في شؤون الدين، وكانوا يجيبون على أسئلة السائلين، فقد كان عبد الله بن عباس يجلس بفناء الكعبة وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن كما أن المسلمين كانوا يقصدونه من أقاصي البلاد يسألونه في المشكلات الدينية[3].

وانتهج التابعون نهج الصحابة الكرام فكانوا يجلسون في المساجد يعظون الناس ويعلمونهم أصول الدين ومن أشهرهم (ربيعة الرأي) وكان له مجلس في المسجد النبوي الشريف وكان يأتيه مالك بن أنس والحسن البصري وأشراف المدينة للأخذ عنه، وكان لربيعة الرأي هذا حلقة وافرة، كما كان للحسن البصري حلقة كبيرة في مسجد البصرة يعظ فيها الناس ويذكرهم وكان أفصح أهل زمانه[4].

ولم يبق المسجد الإسلامي مقتصرا على الوعظ والإرشاد وتفسير القرآن وتعليم الناس القراءة والكتابة وما شابه ذلك، بل أخذت كثير من العلوم التي استجدت في الإسلام بعد الفتوحات العظيمة والتي تمت في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين طريقها إلى المسجد، وصارت تدرس إلى جانب العلوم الدينية، فالاختلاط بين العرب والعناصر الأخرى التي دخلت الإسلام بعد الفتوح أدى إلى ظهور مشاكل كثيرة، منها أن اللغة العربية السليمة تعرضت للوثة العجمة، كما ظهر بين العرب من لا يحسن العربية، وتعرضت عقيدة البعض منهم لشيء من الشك عند انتشار الحركات الوافدة مثل الزندقة، وظهر النقاش في الأمور الدينية والتي أنتجت علم الكلام وكانت مشكلة مرتكب الكبيرة هي السبب المباشر لنشوء فرقة إسلامية كبيرة هي فرقة المعتزلة، وقيام أول حلقة لعلم الكلام في مسجد البصرة عند ما اعتزل واصل بن عطاء وعمرو بن عبيده حلقة الحسن البصري وكونا بمعونة نفر من أصحابهم حلقة خاصة بهم وأصبح للمعتزلة شأن كبير في الفكر الإسلامي في العصور الوسطى.

---

[1] الإدريس: التراتيب الإدارية، ج2، ص:219.

[2] السيوطي: المزهر، ج2، ص:199.

[3] الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص:72.

[4] ابن خلكان: وفيات الأعيان ج1، ص:160.

واتخذ بعض الشعراء من المسجد مكانا لرواية الشعر، وقد ذكر الجاحظ أنه أدرك بالبصرة رواة المسجديين والمربديين، وعن رواية الشعر تفرعت رواية اللغة وغريبها وظهرت طائفة من الباحثين اللغويين عرفت بأصحاب العربية الذين كانوا الرواد الأوائل للدراسات اللغوية، وكان المسجد مقر العالم الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة 174 والذي يعتبر أول من رسم علم اللغة وأول من صنف فيه، والخليل هو واضع علم العروض وفن المعاجم في العربية.

وروى أن أعرابيا دخل مسجد البصرة فانتهى إلى حلقة يتذاكرون فيها الأشعار والأخبار وهو يستطيب كلامهم ثم أخذوا في العروض وتباحثوا في أوزان الشعر، وظن أنهم يأتمرون به فخرج مسرعا وهو يقول شعرا يشرح حاله:

قد كان أخذهم في الشعر يعجبني حتى تعاطوا كلام الزنج والروم

لما سمعت كلاما لست أفهمه كأنه زجل الغربان والبوم

وليت منفلتا والله يعصمني من التقحم في تلك الجراثيم

وروى السيوطي المتوفى سنة 911هـ أن القراءات والطب والميقات بالإضافة إلى دروس التفسير واللغة درست في الجامع الطولوني.

من هذا ترى أن التعليم تطور في المساجد الإسلامية تطورا واضحا منذ أن شيد أول مسجد في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم حتى القرن الخامس الهجري، وكان للمسجد الدور العظيم في ازدهار الحركة التعليمية كما كانت المساجد طليعة البعث الثقافي وقاعدة التعليم بوجه عام قبل ظهور الحركة المدرسية في الإسلام.

وبدأت في العالم الإسلامي حركة إنشاء المدارس، ولعل أهم تلك المدارس التي شيدت في منتصف القرن الخامس الهجري هي المدرسة النظامية التي شيدها الوزير السلجوقي نظام الملك ببغداد سنة 459هـ، وتعتبر هذه المدرسة أقدم المدارس البغدادية واشهرها، وقد أنشئت لتدريس فقه المذهب الشافعي، وكان نظام الملك قد أمر بإنشاء عدة مدارس في العالم الإسلامي أصبحت نموذجا للمدارس الجديدة، وغدا نظام الملك نفسه قدوة حسنة يحتذي به كبار رجال الدولة من الوزراء والأمراء في إنشاء المدارس، كما أن أهمية عمل نظام الملك ترجع إلى كونه بداية عصر جديد من الازدهار للمدرسة إذ اصبح السلطان ورجال الطبقة العالية مولعين بتأسيس المدارس مما أدى إلى نشاط الحركة التعليمية في العالم الإسلامي.

ومن الجدير بالذكر أن نظام الملك كان أول من خصص الرواتب والأجور للمدرسين ولكل العاملين في مدارسه كما تكفل بإعاشة الطلبة وإقامتهم وتحمل جميع نفقاتهم، وكان لهذه المبادرة رد فعل عند علماء ما وراء النهر، الذين أصابهم الهم والحزن عند ما كوشفوا ببناء المدارس ببغداد والتنظيمات التي أستحدثها نظام الملك فيها، فأقاموا مأتم العلم، وقالوا: كان يشتغل

به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم، وإذا صار عليه أجره تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل[1].

ولما كانت المدارس الحكومية هي في الحقيقة امتدادا لحركة التعليم في المساجد لذا نرى أن التعليم في بداية أمره في مدارس نظام الملك كان قائما على العلوم الدينية واللغوية، واعتقد أن هذا كان استجابة لروح العصر الذي شيدت لأجله المدرسة النظامية، وقد اعتمدت النظامية في تدريس ونشر وتطبيق الفقه الشافعي اهتمت بتدريس القرآن الكريم والحديث الشريف والأدب واللغة، ثم أخذت هذه المدرسة تتوسع يوما بعد يوم وأخذت العلوم الرياضية طريقها إلى هذه المدرسة.

وكان الاختصاص من أبرز مظاهر المدرسة النظامية، وعلى سبيل المثال كان أبو المبارك الملقب بالوجيه النحوي متفقها حنفيا ولما استقر منصب تدريس النحو بالمدرسة النظامية وشرط الواقف أن لا يفوض التدريس في المدرسة إلا إلى شافعي المذهب فانتقل أبو المبارك النحوي إلى مذهب الشافعي وتولاه، أي تولى تدريس النحو في المدرسة النظامية، ومن هذا نستدل أن بعض الأساتذة كانوا ينتقلون من مذهب إلى مذهب في سبيل الحصول على منصب رسمي، كما يدل على اقتصار الشافعية لوظائف المدرسة النظامية.

ثم تعددت المدارس في العالم الإسلامي وتنوعت في دراساتها وتخصصاتها وصارت بعض الموضوعات تدخل التدريس في قاعاتها كالطب والصيدلة وعلم الفلك والحساب والجبر والهندسة وغيرها من المواضيع، ولعل من أبرز وأشهر المدارس التي أنشئت في أواخر الدولة العباسية هي المدرسة المستنصرية والتي أمر ببنائها الخليفة المستنصر بالله العباسي وافتتحت للتدريس سنة 630هـ، والمدرسة المستنصرية لها أهمية خاصة لأنها تعتبر خطوة جديدة في تطور تاريخ المدارس في العالم الإسلامي، إذ المعروف أن المدارس السابقة كانت كل واحدة منها تخصص لدراسة مذهب واحد بعينه، ولكن هذه المدرسة هي أول مدرسة عرفها العالم الإسلامي تشيد لتدريس المذاهب الأربعة، ويبدو أن الخليفة المستنصر أستهدف من عمله ذلك جعل مدرسته محط أنظار أهل السنة جميعا فلا يقف شرط مذهبي أمام الطالب كما جعل نظام الملك من شروط القبول في النظامية أن يكون الطالب شافعيا أصلا وفرعا.

أن الأنظمة الحية المتطورة والتي جاءت بها المدارس الإسلامية كان لها الأثر المحمود في تطوير الدراسات في العالم الإسلامي بخاصة والعالم بعامة، ونلاحظ أن النظام التعليمي في المدارس الإسلامية ونأخذ المدرسة النظامية على سبيل المثال أنها عنيت بالتنظيم الذي يمكن أن نسميه بالجامعي، فالهيئة التدريسية فيها تتكون من المدرسين والمعيدين ويحدد القلقشندى وظيفة

---

[1] حاجي خليفة: كشف الظنون ح1، ص55.

المدرس بأنه الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف ونحو ذلك وكان تعيين المدرس في أول تأسيس النظامية من صلاحية الوزير نظام الملك كما كان ذلك عند ما عين نظام الملك، أبا إسحاق الشيرازي للتدريس في نظامية بغداد وكما عين هو الإمام الغزالي للتدريس في المدرسة ذاتها بعد ذلك. وإن المدرسة كانت حريصة على التخصص العلمي ويختار المدرس من الذين عرفوا بالعلمية الواسعة والشهرة في تخصصه الدقيق.

أما وظيفة المعيد، فوظيفة حضارية تؤكد أهمية التعليم وتطوره عند المسلمين ومن المعتقد أن هذه الوظيفة، ظهرت في القرن الخامس الهجري وذلك لعدم ورود مثل هذه الوظيفة قبل هذا التاريخ، وأرجح أن هذه الوظيفة ظهرت وهي على علاقة وثيقة بوظيفة المدرس بعد تأسيس النظامية، والطريقة في هذه الوظيفة ومحفزاتها أنها جعلت الطلبة في المدرسة النظامية يتنافسون تنافسا علميا من أجل الحصول على الدرجات العلمية الممتازة التي تؤهلهم لوظيفة المعيد، وهذا بالطبع سيؤدي إلى رفع المستوى العلمي لطلاب المدرسة الإسلامية وإلى ابتكار المواضيع العلمية المختلفة وهناك أسماء كثيرة من الذين كانوا طلبة في النظامية أو المستنصرية عينوا معيدين لكفاءاتهم وقدراتهم العلمية الممتازة.

كما أن المعيد إذا ما أثبت جدارة وأهلية وأصالة بحث رقي إلى درجة مدرس وهذا عامل آخر مهم ساعد على تركيز الدراسات وتعميقها كما عمل على تطور العلوم الإسلامية كافة.

وكان المدرس يجلس على كرسي عند التدريس ويلبس ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان، وكان بعض المدرسين ينتقلون من مدرسة لأخرى فالشيخ عبد الرحمن بن عمر بن أبي القاسم البصري كان مدرسا في المدرسة البشيرية ونقل إلى تدريس المستنصرية في شوال سنة 681، ورتب نجم الدين بن أبي العز مدرس المستنصرية للشافعية مدرسا في المدرسة النظامية، وكان بعض المدرسين يجمعون بين التدريس وبعض الوظائف الأخرى فالشيخ محيي الدين ابن الجوزي مدرس الحنابلة في المستنصرية رتب أستاذ الدار بالإضافة إلى التدريس والشيخ عبد الله بن محمد بن حماد الو اسطي درس بالمستنصرية وولي القضاء، كما كان بعض المدرسين يجتمع له التدريس في مدرستين فالشيخ تاج الدين ابن السباك درس بمشهد أبي حنيفة مضافا إلى تدريس المستنصرية.

والظاهر أنه لم يكن هناك نظام إحالة المدرس إلى التقاعد (إلى المعاش) في العصر العباسي فقد ذكر ابن الفوطي أن الشيخ كمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن المعروف بأبي وريدة البغدادي كان يطيل الجلوس مع طلاب العلم ولا يضجر وأنه ينف على التسعين وكان شيخا بدار الحديث المستنصرية. كما ذكر السلامي أن ابن الصباغ المنعوت بالشمس طبيب المستنصرية

توفى سنة 683 وناهز على المائة وينف عليها. كما أن نظام المدرس كان يسمح أن يتولى الضرير التدريس فقد تولى عبد الرحمن بن عمر الحنبلي الضرير تدريس المستنصرية.

والذي ألاحظه أن المدرس في هذا الدور تقدم من الناحية الاجتماعية وأصبحت له مكانة عالية ووسع له في الرزق وأصبحت له شخصية معتبرة في المجتمع، وصار المدرسون يتولون المناصب العالية فالشيخ يوسف بن عبد الرحمن بن الشيخ جمال الدين ابن الجوزي كان مدرسا للمستنصرية وولي أستاذية الدار، وعين جمال الدين العاقولي مدرس المستنصرية لقضاء القضاة. كما عين كمال الدين اللمغاني أقضى القضاة مدرسا في المستنصرية. وهناك بعض النصوص تشير إلى أن المدرسين في المستنصرية كانوا يشتغلون بتأليف الكتب مما يدل على أن المدرسة كانت تهتم بإنتاج المدرس العلمي والأدبي.

أما ما يخص جانب الطلاب في نظام المدرسة فقد كان من شروط ذلك النظام أن يكون بها مائتان وثمانية وأربعون طالبا من كل طائفة إثنان وستون، أن يجري لكل واحد منهم كل يوم أربع خبزات وغرف طبيخ مما يطبخ في مطبخ المدرسة وفي كل شهر ديناران غير الحلوى والفاكهة والصابون والزيت.

أما كيف كان يختار الطلاب عند قبولهم في المدرسة فإني أرجح أن المدرس كان يتعاون في هذا مع إدارة المدرسة وللطالب الحق بعد قبوله في اختيار المادة التي يريد دراستها. أما هل كان هناك شرط لقبول الطلاب في سن معينة؟ الذي اعتقده أن الطلاب الذين يقبلون في المدرسة المستنصرية كانوا على نوعين من حيث السن. الطلبة الصغار وهم الذين يقبلون في دار القرآن الملحقة بالمدرسة المستنصرية وذلك لأن المؤسس نص في شروط نظام المدرسة (أن يكون في دار القرآن شيخ يلقى القرآن وثلاثون صبيا أيتاما ومعيد)، والنوع الثاني هم الطلبة الكبار الذين يقبلون في أقسام الفقه والحديث والطب وغيرها من الأقسام الأخرى وأعمارهم كبيرة بدليل أن الواقف نص في نظام المدرسة (أن عدد الفقهاء بها مائتان وثمانية رجلا من كل طائفة) فكلمة رجل معناها الشخص الذي بلغ سن الرشد وتجاوزه.

كما اعتقد أن طلبة دار القرآن لهم الحق أن يستمروا في دراستهم بعد أن يكملوها في دار القرآن ويبلغوا سنا معينة ولهم أن يكونوا في زمرة طلبة الفقه أو الحديث في المدرسة المستنصرية.

ونظام المدرسة المستنصرية، كان يوفر كل وسائل الراحة والمعيشة للطلاب وذلك كي يتفرغوا تفرغا تاما للمدرسة، وقد خصص المؤسس في شروط نظام المدرسة لكل طالب من طلبة الفقه أربعة أرطال خبزا وغرفا طبيخا وفي كل شهر دينارا من غير الحلوى والفاكهة والصابون والزيت، وكان الطلاب يعيشون في غرف خاصة مجهزة بالضوء الكافي والبسط وكل ما يحتاجه الطالب من الحاجيات الضرورية له.

وقد وفد الطلاب على المدرسة المستنصرية من جميع أنحاء العالم رغبة في التحصيل والاستزادة من العلم وذلك لافتقار مناطقهم إلى المدارس الكبيرة والأساتذة الكبار ولن المدرسة المستنصرية حديثة العهد عن المدرسة النظامية وأنها جديدة في نظمها وشروحها ومواضيع علومها المختلفة التي تتفق ورغبات الطالب، كما أن الطالب وجد في هذه المدرسة أمله في المستقبل وأنها تحقق رغبته في العيش بصورة كريمة محترمة، فطبيعي أن خريجي هذه المدرسة كانوا يعينون في الوظائف الراقية كما أن أصحاب المذاهب السنية المالكية والحنابلة والحنفية رأوا في المستنصرية متنفسا لهم ومكانا لتلقي العلم وذلك لأن النظامية كانت مقصورة على أبناء الشافعية، ولا يقبل في المدرسة إلا من كان شافعيا أصلا وفرعا. فأخذ هؤلاء يفدون على المدرسة جماعات كثيرة يتلقون العلم والمعرفة فيها وبرز منهم الكثير في مواضيع أدبية وعلمية مختلفة وأصبح منهم العلماء والأدباء الذين يشار إليهم بالبنان.

وكان الطلاب ينامون في غرف خاصة بالمدرسة والذي أرجحه أن كل ثلاثة طلاب أو أربعة كانوا ينامون في غرفة واحدة وفيها يدرسون أيضا، ومن الطبيعي أن تتوثق العلاقات بين هؤلاء الطلاب وأن تقوم بين بعضهم والبعض الآخر روابط قوية من المودة والإخاء.

وكان التخصص واضحا في المدرسة وقد نصت شروط المدرسة "أن يكون لكل طائفة من المذاهب الأربعة مدرس وأربعة معيدين "فالمدرس الحنفي يدرس الفقه الحنفي والمدرس الشافعي يدرس الفقه الشافعي وهكذا بقية المذاهب، كما نصت شروط المدرسة أن يكون في دار الحديث شيخ عالي الإسناد يشتغل بعلم الحديث، أي أن يختص بتدريس علم الحديث، "أن يكون بالمدرسة طبيب حاذق يشغل عشرة أنفس يعلمهم الطب"، أن يكون بالمدرسة نحوي يعلم العربية، كما شرط "أن يكون بها من يشتغل بعلم الفرائض والحساب إلى غير ذلك.

يمكن القول إذن أن المدرسة خطت خطوة جديدة وكبيرة إلى الأمام في منهاجها العلمي والأدبي فقد درست فيها العلوم الدينية وغيرها وأدخلت علوم الطب لأول مرة في مدارس بغداد، وطبيعي أن المدرسة إسلامية فكان لابد أن تهتم أولا بالعلوم الدينية، إلا أن هذه المدرسة أولت العلوم الأخرى عناية كبيرة وعينت لكل فرع مدرسا يقوم بتدريس ذلك الفرع من العلوم.

وكان المدرس هو الذي يختار المادة التي يدرسها للطلاب وهو المسؤول عن طلابه ولكن في بداية إنشاء المستنصرية حددت الوزارة والخلافة منهج التعليم وطلبتا أن يكون تدريس المدرسين في المدرسة من مصادر كتبها الشيوخ السالفون وهذا على ما اعتقده أن الوزارة والخلافة كان لهما هذا الرأي وذلك للمحافظة على ما كتب الشيوخ الذين كانت لهم خبرة وتجربة وشهرة في العلم "احتراما وتبركا لتأليفهم" وكذلك لكي يوحد المنهج ويدرس جميع الطلاب منهجا واحدا فيوجد المستوى على ما اتفق عليه.

ويمكن أن نقسم العلوم التي كانت تدرس في المستنصرية إلى:

1-علوم دينية، وهي تشمل: التفسير والحديث والفقه والفرائض وقراءة القرآن.

2-علوم أدبية، وهي تشمل: اللغة والنحو والصرف والعروض والأخبار والأدب.

3-علوم رياضية، وهي تشمل: الحساب والجبر والهندسة والمساحة.

4-علوم عقلية، وهي تشمل: المنطق وعلم الكلام والأصول.

5-علوم طبيعية علمية، وهي تشمل: الطب والصيدلة وعلم الحيوان.

ويؤيدنا في هذا التقسيم، النص الذي أورده المؤرخ الأوربي في خلاصة الذهب المسبوك.

أما عطلة المدرسة فالذي أرجحه أنها تصادف في عيد الفطر وعيد الأضحى كما أرى أنه لم تكن هناك إجازة سنوية طويلة بل كان الطالب يشغل طيلة العام فلم يتمتع بإجازة في شهر رجب مثلا ذلك لأن المدرسة فتحت أبوابها في خامس رجب، ولم يكن الطلاب يمنحون إجازة في شهر رمضان، فإن محيي الدين بن الجوزي وصل من مصر في شهر رمضان وخلع عليه بدار الوزارة خلعة التدريس على الحنابلة بالمدرسة المستنصرية وحضر المدرسة بالخلعة ومعه جميع الولاة والحجاب فجلس على السدة وخطب وذكر دروسا.

أما مواعيد الدروس فالذي اعتقده، أن تلك المواعيد كانت مرتبطة بمواعيد الصلاة فهي أما أن تكون قبل أو بعد الصلاة فبعد صلاة الفجر مثلا أو بعد صلاة العصر، كما نظمت بعض مواعيد الدروس فإن مواعيد دروس الحديث في كل يوم سبت واثنين وخميس من كل أسبوع، فيلاحظ أنها مرتبة ترتيبا تربويا جيدا بحيث يكون للطالب وقت للتحضير ولا يحصل له الملل من تعاقب الموضوع الواحد يوما بعد يوم كما يكون لدى الطالب الوقت الكافي لدراسة أي موضوع آخر قد يحلو له دراسته.

أما كم هو وقت الدرس فهذا على ما اعتقد لم يحدد بل ترك مجاله للأستاذ وعلى الأستاذ أن يقدر الوقت الكافي للموضوع الواحد أو للدرس الواحد فقد يجلس للدرس ساعة وقد يجلس ساعتين، فقد كان الشيخ كمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد اللطيف المعروف بابن وريدة البغدادي المحدث شيخا بدار الحديث وكان يطيل الجلوس مع طلاب العلم ولا يضجر. كما أن الشيخ عبد الله ابن محمد بن أبي بكر الزريراني كان يورد دروسا مطولة فصيحة منقحة.

ولم تكن هناك صفوف شبيهة بالصفوف الحديثة، بل كان المدرس يجلس على كرسي والطلبة تجلس على الأرض أمامه على شكل حلقة.

أما طريقة التدريس، فقد كانت الدراسات في المستنصرية من أحدث الدراسات في القرن السابع الهجري، وقد نظمت هذه الدراسات بشكل يؤدي إلى الثمار المطلوبة، فإن النظم التعليمية في المستنصرية كانت من أرقى ما وصلت إليه نظم التعليم في القرن السابع الهجري، ولدينا نص طريف يصف طريقة التدريس في المدرسة المستنصرية، فقد زار ابن بطوطة المدرسة في النصف الأول من القرن الثامن، وشاهد بنفسه حلقات الدرس المختلفة بالمدرسة ووصفها بقوله:

وموضع التدريس وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة.

والملاحظ أن طريقة التدريس كانت هي طريقة الإملاء، وقد اتبعت هذه الطريقة في المدرسة المستنصرية وذلك لندرة الكتب في تلك الحقبة من الزمن كما يجب أن نعلم أن عدد طلاب الفقه لكل مدرس 62 طالبا فليس هناك من طريقة تتبع لكي يستفيد هؤلاء الطلاب في وقت واحد غير طريقة الإملاء، وفي بعض الأحيان يكون في يد كل تلميذ نسخة من الكتاب الذي يدرس يستنسخها لنفسه لتكون تحت تصرفه أثناء إلقاء المدرس أو شرحه أو تعليقه عليه. وأن المدرس بعد الإملاء يبدأ بفتح باب المناقشة والمناظرة ولا يخفى ما للمناظرة من فوائد جمة في رسوخ المعلومات في ذهن الطالب "فإن فائدة المناظرة أقوى من فائدة التكرار وقيل مطارحة ساعة خير من تكرار شهر" وكان أبو بكر بن عمر الفاروئي مدرس المستنصرية جيد المناظرة.

ولم تكن طريقة الإملاء هي الطريقة الوحيدة المتبعة في المستنصرية بل يبدو أن بعض المدرسين بها كانوا أحيانا يشجعون طلابهم على البحث العلمي فكان المدرس يكلف الطالب ببحث موضوع من الموضوعات، فإذا وفق في بحثه نال من تشجيع أستاذه الشيء الكثير من العناية والأهتمام، فإن الحسين بن يوسف بن محمد الدجيلي البغدادي أحد طلاب المدرسة المستنصرية عرض كتابا من تصنيفه سماه (الوجيز) في الفقه على شيخه الزريراني مدرس المستنصرية وعلق المدرس على الكتاب بعد مطالعته، ما نصه: "الفيته كتابا وجيزا كما وسمه لمسائل كثيرة وفوائد غزيرة قل أن يجتمع مثلها في أمثاله". فالبحث العلمي متوفر في المدرسة المستنصرية لا جدال فيه ولكنه على ما يظهر موقوف على نخبة ممتازة من نوابغ الطلبة الراغبين في هذا النوع من البحث والقادرين عليه.

وقد اتبع الطلبة في زيادة الفهم ورسوخ المعلومات في الذهن إلى طريقة السؤال ومناقشة المدرس في بعض مشاكل موضوع الدرس، وكان المدرس يفسح المجال للطلاب لمدرس النظامية. وكان لتوجيه السؤال من قبل الطالب ومناقشة للأستاذ آداب خاصة تكفل للأستاذ هيبته ووقاره وللطالب حرية رأيه وتهيئ له سبيل الاستفادة ومن الآداب المعروفة أيضا، أن لا يهزأ المدرس برأي الطالب ولا يزدري المساكين منهم".

والظاهر أن بعض الطلاب كانوا لا يكتفون بالحفظ والفهم والسؤال والمناقشة بل كانوا يرجعون إلى أماكن أخرى ينشدون بها العلم، فقد يسمعون عن وجود أستاذ مثلا في دمشق أو القاهرة أو أصفهان أو نيسابور وغيرها من المدن التي اشتهرت بالعلم وكثرة العلماء، "فقد رحل عمر بن علي بن موسى البغدادي الذي سمع من أبن الطبال وابن القاسم وابن الدواليبي وهم من

مدرسي المستنصرية، رحل إلى دمشق وقرأ بها صحيح البخاري على الحجار بالحنبلية، وجالس الشيخ تقي الدين ابن تيمية وأخذ عنه".

كذلك فعل الطالب سليمان بن عبد القوي الذ سافر إلى دمشق وجالس ابن تيمية والمـــزى والشيخ الحراني ثم سافر إلى مصر وسمع من القاضي سعد الدين الحارثي وقرأ على ابن حيـــان النحوي مختصر لكتاب سيبويه ومجالسه.

وقد قام مدرسو المدرسة المستنصرية بالرحلات الدراسية أيضا ورحل كثير من مدرسيها إلى مناطق كثيرة في العالم الإسلامي طلبا للعلم. ومما لاشك فيه أن رحلة الطلاب والمدرسين من بلد إلى آخر كانت سببا مهما في زيادة التعارف الثقافي بين كثير من شيوخ العلم وطلابه، فكانت المعلومات وأساليب الثقافة تنتقل من بلد إلى آخر نتيجة المشاهدة والدراسة كما كانت سببا رئيسيا في وحدة الثقافة وتوطيد علاقات وثيقة بين العلماء في تلك الحقبة.

وكان الطالب بعد أن يستكمل تعليمه ينال من شيخه (أستاذه) إجـــازة، والإجـــازة هـــي الشهادة التي يمنحها المدرس في المدرسة للطالب بعد الفراغ من دراسة كتاب ما أو موضوع ما، ليجيز له تدريسه أو روايته، وقد أصبحت الإجازة من الضرورات المهمة التي يجب على الفقيـــه الحصول عليها كي يثبت أنه وصل إلى درجة كافية من العلم تؤهله لتدريس أو رواية ما سمعه أو تلقاه عن شيخه أو أستاذه.

ويبدو لي أن المدرسة لم تكن هي المسؤولة أو التي تقوم بمنح طلابها الإجازة العلمية بل كانت الإجازة تصدر من المدرس نفسه وباسمه، ويمنح الشيخ الإجازة بعد أن يقدم الطالب التماسا إلى شيخه يطلب فيه منحه الإجازة، يقول ابن الفوطي عن نفسه: فلمـــا قـــدمت بغـــداد بإشـــارة الصاحب السعيد عطا ملك كتبت إليه أي إلى كهف الدين ابن إبراهيم المخرزي الواعظ ألتمس منه الإجازة وما ينظم إلى ذلك من الفوائد والفرائد فكتب إليّ إجازة جامعة ومعهـــا كراســـة بخطـــه تحتوي على النثر والنظم. وهذا النص يبين بصراحة أن الإجازة يســـبقها الألتمـــاس أي الطلـــب وكانت هذه الطريقة على ما يظهر متبعة عند مدرسي النظامية أيضا.

وتبين لنا من دراستنا للنماذج القليلة التي عثرنا عليه للإجازات التي منحهـــا مدرســـون بالمستنصرية وغيرها من المدارس المعاصرة أن الشيخ المدرس كان يجيـــز تلميـــذه أو طالـــب الإجازة بوجه عام رواية كتاب بعينه أو مجموعة من الكتب من تأليفه أو تأليف غيره، وقد يجيز بالقراءة أو الرواية في علم بذاته أو في مجموعة من العلوم.

أن المدارس الإسلامية والتي برزت بشكلها المنظم في النصف الثاني من القرن الخامس وامتدت من المشرق وحتى المغرب كانت تطورا كبيرا في الحياة الثقافية والتعليمية وأدت رسالتها من أجل تطوير وازدهار التعليم في العالم الإسلامي كما كان لها دورها البارز في تنشيط الآداب والعلوم وساهمت بإخلاص في توحيد الفكر الإسلامي والحفاظ على التراث الثقـــافي والاهتمـــام

بأصول البحث والعناية بالفرد من الناحية الاجتماعية كما كان إنشاء المـــدارس مســـاهمة فعالـــة وبناءة في رقي البناء وإظهار روعة العمارة الإسلامية بأساليبها الجميلة.